مقدمة
النفس المؤمنة

انتقاء وتجميع العناصر المتميزة بالذكاء والشجاعة من الشباب، ثم تربيتها تربية عميقة شاملة صلبة: ركنان أساسيان في خطة الحركة الإسلامية.

وإنه – كما يقول أبو الحسن الندوي: **" لابد من إنتاج الرجال الذين يقومون بالدعوة ويديرون دفتها، ويربون الرجال، ويملئون كل فراغ. وكل حركة أو دعوة أو مؤسسة، مهما كانت قوية أو غنية في الرجال فإنها معرضة للخطر، وإنها لا تلبث أن ينقرض رجالها واحداً إثر آخر، وتفلس في يوم من الأيام في الرجال "** [1].

* على الحركة الإسلامية أن تتفرس في نفسها

ولكن هذه التربية ليست اكتيال جزاف، فإن أخص خصائصها: أنها تلبي نداء الحاجات المرحلية، وتعالج الواقع. وفي كل أدب أرشد إليه الإسلام خير. ولكن طاقة ذي النية الصالحة محدودة، فواجب إقرار المفاضلة بين أجزاء هذا الخير، والبدء بما هو أفضل، وبما يسد حاجة المرحلة من بعد تشخيص النقص.

---

(١) مذكرات سائح في العالم العربي ٧٩.

ذلكم هو الذي يوجب من بعدُ أن تتفرس الحركة الإسلامية الحاضرة في نفسها فراسة خبرة، في خلوة تأمل؛ فتحدد نقصها، وتحصي رصيدها، ليأذن الله أن تصدق فراستها الأخرى في الناس، وتحكم طريقها في هذا التصارع العنيف، كما قال الزاهد الحكيم سمنون رحمه الله حين سئل عن الفراسة وحقيقتها، فأجاب:

(إن من تفرس في نفسه فعرفها صحت له الفراسة في غيره وأحكمها) [1].

وإنه لمعنى رفيع يكشف عنه سمنون في هذه الحروف القليلة، ويخولنا إياه، لنتخذه منطلقاً لفراسة نقدية نصف فيها أنفسنا ونحدد نقصنا، ثم تحويل الفراسة إلى دراسة نسلكها ينابيع في صفوف الدعاة بإذن الله، فيخرج بها دعاة، يصدقون بالصدق الذي جاءهم عن ربهم، ويحفظون أمره.

ولقد شهد التاريخ القريب لأجزاء الحركة بعداً عن الموازنة في أساليب التكوين والتربية، وطغياناً في جوانب على جوانب أخرى، فترى منطقة غلبة الجانب التعبدي وتزكية النفس، وفي أخرى ترفا فكريا، وفي ثالثة ولعا بالمشاركة في أحداث السياسة اليومية، فاختلفت الصياغات.

ومن حيثيات كثيرة يعرفها أهل المعاناة: بدأ يتضح الخط التربوي المتكامل الموزون، المستدرِك للنقص، وتحددت ملامحه في غرس معاني:

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ٩/ ٢٣٦.

* الحرص على الصلاة وتثبيت العقيدة.
* والالتزام بأدب الأخوة.
* والفرح بالبذل والتعب اليومي.
* والشوق إلى الجهاد والاستشهاد، من دون تهور.
* والانضباط بالطاعة.
* والتقلل من الدنيا وطلب الخِفّة.
* وترقب الموت ونسيان الأمل الدنيوي.
* وحب الله تعالى، في رجاء يضبطه خوف.
* ومفاصلة الذين كفروا والذين نافقوا.
* والصبر على المحن.

فمن تحقق في هذه المعاني فهو الصلب الذي يصح أن يعتمد ضمن القاعدة الصلبة للحركة الإسلامية.

وهذه الفصول مخصصة لبيان بعض هذه المعاني والتذكير بها، من خلال مواعظ ترقق القلب، وتعين النفس على اكتشاف الطريق الصحيح، وتؤنسها؛ إذ هي ماضية فيه، فإن مَدار حركات هذه الحياة متصل بمحور النفس المترددة بين التقوى والفجور، إن صلحت كان لها ظل وارف يهب الأمن لصاحبها، ومُتسعا للآخرين، في امتداد بمقدار هذا الصلاح. وإن فسدت كان ثَمّ اضطراب، وجحيم من القلق.

فمن أجل التنبيه على جمال النفس المؤمنة والحث على الاقتداء بِسَمْتِها جاء هذا الكتاب.

ويعجبني جدا وصف الشاعر التونسي أحمد المختار الوزير للنفس البريئة، ورمز لها رمزا، جعلها كأنها فراشة، واقترب كل الاقتراب من إدراك كمال الحقيقة، تسوقه فطرته، إلا أنه لم يمسكها، وفاتَه أنه يصف النفس المؤمنة بأبلغ مما وصفها غيره..

إنها تأسره؛ إذ هي:

ساكنة، في صَمتها، أبْيَنُ ممن يَنْطقُ

هكذا هي السيماء الإيمانية: وداعة، وتفكّر، وتأمل هادئ، في إقلال من الكلام، وبعد عن اللغو، ولكن تحوطها هيبة مؤثرة، وجَمال بليغ مفصح.

وإن وَنَتْ وَقْفَتها أعْجَلَها المنطلَقُ

فالوقفات سُنة من سنن الحياة، وقدر مقدور على البشر، إلا أنها عند المؤمن لن تكون استرخاء وغفلة وتماديا أبدا، بل هي تعتري برهة، ثم تُجليها محفِّزات كامنة، من رصيد ذاتي مجموع أو تراث حكمة مركوز.

لكن الشياطين تعترض؛ تحاول عرقلة هذا المنطلق، توهم صاحبه، وتضع العوائق الثقال في صور من الزينة؛ لها بهرج، وتألق، وبريق، تغش النفس الهائمة. ولكن النفس الملهَمة، التي أُلهمت إيمانها، ترى ما

وراء ذلك من حقائق تفضح ما خفي من كبرياء مفتعلة، أو حسد موسوِس، أو صدارة متأخرة، أو حب زيادة مال زائل. فذلك هو حوم الفراشة حول ومضات صورتها على سطح البحيرة.

أو هي تجربة النفس المؤمنة.

لكم رأت خيالَها، ماجَ به المنبثق
أنه النجمُ يرفُّ، والمياه الأفق
فحوَّمَت، ترنوا، تَود لو به تَعْتَلِق
وأَوشكت، لو لم تُفِق، يقضي عليها الغرَق
لكنها مؤمنة، هيهات، لا تستحمِق
بين الضلال والهدى يبدو لها المفترَق

نعم هكذا: المفترق واضح، والاقتراب يفضح الصورة، ويزيد الوضوح وضوحا، ويبين: أنّ ما ظنته النفس تألقاً من على بُعد إن هو إلا اهتزاز.

ولكن كيف النجاة مع هذا الاقتراب من موجة عالية تفجأ، فتترك بَلَلاً يُثقِل، إن لم يكن الغرق المتلف؟

من هنا وجبت الموعظة، وانبغى التحذير، في كلام كمثل هذه الرقائق، كي لا تهبط النفس المؤمنة، إذ آمنت، بشيء من رذاذ الاقتراب، بل حياتها في السمو، ونجاتها في العلو.

إنها قطعة من البيان نادرة أتى بها الشاعر، وأهداها الناشئة، لكنها حكمة المنتهين.

وليس ذلك بمستغرب في عرف الحكمة الإسلامية، فإنها أبدية الصواب، ليس لها مرحلة متطورة جاءت من بعد سذاجة وتخلّف، لكنها كما تصلح انتهاء كانت تصلح توسطاً، وصلحت ابتداء، مع بدء الحياة البشرية، وآية ذلك أن التوحيد أُوحي إلى آدم -عليه السلام- بدءَ الحياة، وكان نبيا، وأُلهمت التقوى إلى هابيل، فكفَّ يدَه.

فانظر إشراقة القلب ولطف الإحساس في هذا الرمز المفصح عن طبائع النفس الزكية، وانظر بمقابلة غلظ حجاب قلب شاعر ملحد يدعو إلى البهيمية..

إنما العيشُ في بهيمة اللذة لا ما يقوله الفلسفي

حكمُ كأس المنونِ أن يتساوى في حساها الغبي والألمعي

ويصير الغبي تحت ثرى الأرض كما صار تحتها اللوذعي

فسل الأرضَ عنهما إن أزال الشكَّ والشبهةَ السؤالُ الخفي

وواضح هنا: أن هذا الملحد أشار إلى أن المعاني الحقة هي قول الفلسفي، لا قول الواعظ المسلم، ليتجنب في ظنه ما قد يكون من اتهامة بالمروق عن الدين.

قال أبو حيان التوحيدي: سمع أبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني المنطقي هذه الأبيات، فقال: " هذا النمط مفسدة للشباب الأغرار، الذين ليست لهم بصيرة في الأمور، وهم عبيد الإحساسات الوافدة بالعادات الفاسدة، والاعتقادات الرديئة بتلقين قرناء السوء،

وقائل هذا قد عاند الدين، وخلع رِبقة الحياء، وأفصح عن الفساد، وصَدَّ عن الحكمة، وقدح بزند الشبهة في النفوس الضعيفة، والعقول الخفيفة.

يا مسكين: أَمِن أجل أن الصالح والطالح والعالم والجاهل صاروا تحت التراب يتساوون في العاقبة؟

أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد، فلما بلغوا المقصد نزل كل واحد في مكان معداً له، وتُلقي بغير ما يُلقى به صاحبه؟

أما دخل قوم دارا فأُجلس كل واحد منهم في بقعة بعينها، وقوبل هذا بشيء وهذا بشيء آخر؟

ثم تقول: سل الأرض عنهما؟؟

قد سألنا وخبرتنا: إنها ضمت أجسادهم وجثثهم وأبدانهم، لا كفرهم وإيمانهم، ولا أنسابهم وأحسابهم، ولا حكمتهم وسفههم، ولا طاعتهم ومعصيتهم، ولا أقوالهم وأفعالهم، ولا يقينهم وشكهم، ولا زهادتهم وتسبيحهم، ولا معرفتهم وتوحيدهم، ولا خيرهم وشرهم، ولا جورهم وعدلهم ".

وفي مثل هاتين القطعتين من الشعر، وفي التعقيب الذي عليهما، تتضح بعض جوانب المعركة الدائمة بين الإيمان وصور الضلال.

وفي مثل هذا الكتاب مواعظ، وإخبات، وزيادة يقين..